قصة قصيرة

# نوتات مصورة من واقع لن يسالم البغي

## المدرع الشريف

كانت نوافذ الجزائر التي استيقظت على افواج الطلبة المتطوعين مشرعة على أبنائها اذ يهبطون مدرجات ( بيزي ) الى الحافلات ترسلهم سلامها .

أستقر الى الخلف ، أتنفس جو ( افريقيا ) والتجمع ، وتتبرعم في داخلي رغبات تمد يدها الاخوية الى المتعاون ومعا نعيد تشكيل الريف . ردت الحافلة على المدينة ( ثورة الفلاح نادتنا .. زراعية لها تجندنا ) واقلعت تلتهم الطريق الاسفلتي بنهم الذي لم يأكل أبدا ، غير مطمئنة الى ان المسافة ما بين الجزائر والبويرة كافية لاشباع جوعها الفائق .

ما بعد الكيلومتر العشرين .. لا زالت المدينة صورة حية في عقلي ، بناسها ، وسياراتها ، والعمارات ، والقاطرات ، والاسلاك ، وأعمدة الكهرباء والتليفون ، وكل الحمولة التي تعج بها نهارات مدينة انتفخت وتأزمت الى حد الاختناق .

الابتسامات ، البحلقات ، الدهشة ، اشارات ذات معان متضادة . تحيات التلاميذ خزرة ذلكم الخنزير القابع وراء مقود سيارته ، لقد انتفخت أوداجه . الاناشيد شكت قلبه ، وحركت شجنا وحقدا أكلبه . أولاد الـ ... يضحكون عليكم .. تطوعوا .. ها منذ أتت ثورتكم الزراعية .. هلكت الفلاحة .. وحجز الخير .

الصور الآن غير الاولى . بلغنا المنطقة الصناعية برويبة ، اختلفت تسميات ، وشارات الشركات الوطنية ، تداخل الحرف العربي بالفرنسي ، والاشكال بالالوان .. ينبهر العمال حين تداهمهم الاناشيد ، والاغاني المنبعثة من الحافلة . ثم تنبسط أساريرهم اننا لا نسمع ما يقولونه لكنها تفهم قطعا :

ـ نشد على أياديكم .

وها قد بدا الريف يطل . أشجار السرو ، والدوم ، والصفصاف ، تنحني بايعاز من الريح في حركة ترحيبية ، تقفى بامتداد طولاني للاغصان يمسح برفق فوق الارض الشاغرة والعامرة على طرفي الطريق .

ركن الاغلبية الآن الى الحديث فيما بينهم ، أو التفكير ، أو تأمل الخارج . غير ان بث الجوق الفني .. شعبان .. موسى .. سليمة .. ما زال فتيا أروح مع الغناء . كانت الاحرف بشرا من كل الاعمار ، والاجناس ، والالوان ، متشابكي الايدي كما هو حري بالغابة التشيلية لتصد الصقيع عن الارض والعصافير أيام الشتاء . تستوقفني صليحة قبل أن أنزل الشارع المصري لارى بعينيّ شعر وغناء نجم ـ أمام .. وابتداء المسيرة .

ـ أنت معهم أم معنا ؟

ـ ماذا تقولين ؟

انتبهت الى اننا قد شارفنا الاخضرية ، قام عناصر مجموعتنا يجمعون الاغراض .

ـ سألتك ان كنت معنا بفرقة البويرة .

أجابها رشيد منسق تطوع الطلبة بالولاية :

ـ عوضناه بمتطوع آخر . أما هو فقد الحق بمجموعة الاخضرية .

ـ العفو ، حسبتك معنا .

قال لها يستثيرها :

ـ ارتاحي حيث أنت .. فرقتهم ( دروديف ) .

فتدخلت :

ـ التوزيع الواقعي للعناصر مسؤوليتكم .

ـ ها قد دخلنا مرحلة المزاح القاسي ..

فانفجرت صليحة هاتفة :

ـ ( هاوزعف .. هاوتنوي .. هاوزعف .. هاوتنوي ) .

استدارت الانظار ناحيتنا مستطلعة . قال رشيد زاجرا :

ـ يكفي صليحة .

فعاتبه بن يوسف ، أو تصنع ذلك قائلا :

ـ لا تغلط ، هي ( ابريفاديست ) فرقتنا يا السي .

جنب مصطفى سيجارته بين شفتيه ، عوج مطهما كما يفعل الرجلة وأولاد البلاد :

ـ رجلة والا نسوة ..

فعم ضحك صاخب . وانبرى أكثر من لسان يعيد الجملة مقلدا صوته الهزيم .

تقف الحافلة يالله !.. موفقين .. نتصافح .. رشيد .. شعبان .. قاسي .. نور الدين .. صليحة .. وكل الاصدقاء . كمل عدد الفرقة ، تحركت الحافلة من جديد . تلويحات الايدي ، بالسلام ، اشارات النصر .

آه .. صليحة تبتسم .. من القلب أردها ابتسامة أودعتها سكر عنب .

مسؤول الاتحادية غير موجود . نائبه لحق به . ونائب النائب ، والدائرة أخت الاتحادية معطلة اليوم . أما البلدية فلا تريد أن تثبت القياس . بأن تشذ عن القاعدة . الصدفة وحدها تحضر سائق البلدية ، يوصلنا الى قرية ( مسيد زبربورة ) الاشتراكية بعد انتظار مائة وثمانين دقيقة . ويتأجل اللقاء بالسلطات المحلية الى الغد .

بمجرد أن أنيرت أضواء حمام القرية المعد لاقامتنا. فزع الفلاحون الينا :

ـ يا أهلا ..
ـ الشاوش ..
ـ مصطفى .. كيف حالك ؟
ـ جيد .. الدعوة ..
ـ حال الدنيا .
فهم عليه .
ـ غدا سنرى الامور واياكم .

وامتلأ المحل . يدخل اسماعيل . الوجه القمحي ، الشوارب الكثة ، والبسمة المشرقة . راسا يراني . القدامى . يقبل . نتبادل السلام :

ـ كيف انتم ؟
ـ لا بأس ..
ـ صحاح ..
ـ هاه ..

وشددت عليها بحركة من رأسي ، وضحكة :

ـ برافو ..

يدور على الجميع . أوسع له مكانا .

ـ اجلس معنا .
ـ ايوه ..

يلتفت حواليه ، يهم بافتراش شابيته . يلاحظه مصطفى ، فيقف .

ـ لا .. لا ..

يأخذ مطرحا . يطرحه في مقابلتنا .

ـ هكذا نعمل حلقة .. أجمعين ..

أينما حط نظري ، ردت علي العينان . بالترحيب ، والامتنان ، وبالاعتزاز باللقيا ، والوجه بالبشاشة . الوجود يسبقني في التعبير عن الشعور . وابسط سمعي يلتقط تساؤل مصطفى :

ـ نوع مشاكل تعاونيتكم هذه .. انتاجية ؟
ـ والله عراقيل خارج دائرة الانتاج .
ـ تقصدون التسويق ؟
ـ المحيط بصفة عامة .
ـ وبالتحديد ؟
ـ مكتبية القرار وفوقيته .
ـ هذا هو النضال .
ـ الامور متشابكة .
ـ ليس غير نهجه الذي يصفيها .
ـ كثافة النشاط المضاد تزيد التعتيم .
ـ بالعمل الزائد .. وبوحدة النضال تفل حديدته.

يلتفت الى اسماعيل ، عامل «الدومين» ، منصرفا عن الحديث :

ـ عندك ( الشمة ) ؟
ـ لا .. سنيجارة .

ينزع عنها الفلتر .. يشعل .

ـ أجيء انت وانا نصارع ( القره غول ) ..

حدست بنفسه تذمرا مستكنا ، ولم أسأله عن المقصود .

ـ وكل من هو غير صالح لنا .
ـ فعل ذلك حديدوش حصد السيف ..

يقذف بالعقب .

ـ بلاش .
ـ اسمع يا بن يمة . قال التهامي لمصطفى وهو أيضا عامل بالدومين : ما قولك في انسان يقول لك « بعني دينارين بدينار واحد » ؟

أجابه اسماعيل :

ـ يتغابى أو يظن الناس أغبياء .

هذه هي التسعيرة التي جاءتنا .. اذا كان فائض منيجة وسكيكدة يجعل ديناري برتقال في قيمة دينار نقد . وخير وبركة ، فنحن بالاخضرية ما عرفنا هذه الوفرة من الانتاج .

ويتسع أفق الحديث ، ويتوغل الى الاعماق .. ويمتد . وها لم يبق الكثير لتزاح ستارة الليل عن جبل العالية ، وتشرق الشمس ، وحمية النقاش ما برحت في استعار متزايد ، فاسماعيل فجر كل الاشياء .

الديوان الوطني للخضر والفواكه أضحى (قره غول) السوق المعاصر . وقره غول هذا على عهد الاتراك ، يقول اسماعيل ، كان يستبد بالتجارة ويفرض على السوق والباعة الفلاحين أبخس الاثمان ، ويشتري كل المحصول عن طريق أعوانه .. ويبسط المجاعة على الناس . وحينها يبيع بأرباح خيالية . رفض فلاح مجرب التشبيه . مليح .. قال اسماعيل . غير المنتج يتوضأ باللبن وانساغ أطفالنا الحية تشكو من نقص البروتينات .. ولا فائدة من محاولة تضييق عوينات الغربال فالشمس ...

وشد مصطفى عنان حديثه قبل أن يوغل في الركض .

ـ القره غول هو السوق الحرة .. ومن أشرت اليهم دواليب خدمة .
ـ دواليب خدمة وهي المتصرفة .. والنتائج وبال على المنتج والمستهلك .

تنبه مصطفى الى انه يشير الى تسعيرة الحوامض. وازمة التسويق التي خلقتهـــا .. وقد تكون عنـاصر متسربة ..

ـ الامر خلفيات .. وعوامل لا يصفها تفكير الخط المستقيم .

ـ المعنى . لا بد من تركيب عيني بومة في العقـل لنرى كل الجوانب .

ها .. ها . ضحكه . ووجدها سليمان يوغر بها صدر الشطحات القلقة لاسماعيل التي بثها في عقـلـه ونفسه راديو « المانداتير » .

ـ الله يهلكك يا اسماعيل .. البومة ؟ لماذا هـذا التطير ؟ هنا لا يوجد سماح .. وان كنت أود ان نبلـغ منتهى سهرتنا الان .. لنترك الاخوان يرتاحوا .. انما اقول لك : النضال ليس له من سدرة ..

الترحيب . تقديم عمال ( الدومين ) . وبلامغالاة بروتوكولية تكـلم مصطفى طبعـا بعد الكلمة القصيرة لمسؤول الاتحاد الفلاحي البلدي بافاضة حول التطوع . الثورة الزراعية . الرجعية . والامبريالية . ومتطلبـات المرحلة اطارا لفهم مشاكلنا .

قال فلاح : المفيد هنا .

فرد عليه الصادق : الكلمة المفيدة شساعة ..

ـ الملموس هو صحيحها .

فقال مصطفى :

ـ هات الملموس .

ـ انظر الواقع .

ورأينا البرتقالة صبية في عز النضج . انا برتقالة ( الدومين ) ، حمراء مشقرة الخديـن . الاوفلا ، ربـة التجار ، جعلت من شبابي بوارا .. عقد علينا لبلاد بره انـا والسكيكدية والمتيجية ( انوار ) .. لو تقصـدوا ( لاميري ) وتشوفوا عنـدهم التعداد .. خمسيـن لخمسين ، نساء ورجال متعادلين . واذا كان في بـلاد السكيكدية ونوار اكتفوا من نسوان البرتقال . وعلى كل ففي شرط الزواج تبقى الـذرية جزائرية .. واحلام قلبيهما على ( زوفرية ) ، صنايعية ، أصحاب مـواهب وعلوم ، واطارات، يسعدوا اولادنا وبلدنا فيما هو آت.. لكـن لم لي أنا زواج بره ونساءنا ورجالنا متعادلين .. ثم ها اني بوار .. فيا لاحزان الفلاحين .

قال الصديق : هذا هو الواقع فامخر عبابه عملا .

فانبرى مسؤول الاتحاد الفلاحي ورئيس تعاونيـة الثورة الزراعية ( تاصليحت ) متحدثا :

ـ لقد دافعنا عن المنتج ، ورفعت الكابسياس السعر تحت ضغط الفلاحين .

ـ هذا جيد .

واضاف :

ـ لكن مزارع التسيير الذاتي .. الحقيقة خسرت الكثير ..

ورغم علم مصطفى بأن ( تاصليحت ) . وهي مـن مؤممات اقطاعي ـ المعذرة نسيت اسمـه ـ خلفها لـه الاسلاف الكولون ( الفرنسي ) مـن أعتد التعاونيات ، أكثر العمال بها اشتغلوا عند كليهما لذلك فانهم متوحدو الامل واليد .. لكن ...

ـ كان المفروض أن يتم ذلك لكل من القطاعين ..

ـ ( الدومينات ) أجبرت على التعاقد مع ( الاوفلا ) ثم نحن كافحنا في سبيل مصلحة متعاونينا .

ـ ولماذا لا يكون ذلك لمصلحة كل الفلاحين ؟ العامل في التسيير الذاتي ، وفي قطاع الثورة الزراعية كلاهما يشتغل بالارض .

ـ نعم كلاهما ..

ـ فالقضية قضية كل الفلاحين .

ـ بالضبط .

ـ ثم .. أن النضال في الوحدة .

في اجتماع المجلس البلدي الموسع كان أكثر مـن صوت يندد بصفة خفية بما حصل عليه فلاحو تعاونيـة تاصليحت عـلى أساس انهم ولجوا رئيسهم مسؤولا بالاتحاد الفلاحي . لكـن الحوار معهم ـ الفلاحين ـ أظهر ان أساس المصلحة فلاحي بالدرجة الاولى ، وربما الظروف فرضت عليهم منهج نضال لا يستقطب كل فلاحي الاخضرية ، ويقرون بأن ( الدومين ) كان القوة الفلاحيـة التي ساهمت في اقرار الثورة الزراعية كواقع ، وطوال فترة تأسيس تعاونيتنا يقولون كان الرفيق القوي الذي ساعدنا بكل ما يملك .

ـ اسمح لي أحب بذلك .

ـ أنا وأنت اثنان .

ـ ما دام عنا يقرر ..

أعرف في قطرة العرق المستقرة ما بيـن تجاعيد جبهة الشغيل .. هي الصح ، الحقيقة التي تدمغ كـل الكلمات والصور .. وأعود أفتش عن المعنى في المعنى.. كان الجوهر يضمر جوهرا ، وعلى امتداد العمق السحيق كان ( عضو الاتحاد ) يحمل لافتـة كتبت عليها جملة ( توما الاكويني ) : انما الانسان عقل ويد .

قلت له : هذه قمة المغالاة .

ـ نحن نقول وان ليس هناك أكبر من أكل مـال اليتيم. فيحين نغض الطرف عن أتعاب فلاحي (دومينتنا) وملايين المنتجين .

ـ أنت متأثر بمسألة البرتقال الذي ضاع .

ـ لقد كنت واضحا معك .. لا يمكـن لاحد أن يحب بدلا من أحد .

ـ هذا صحيح ...

ـ ولا حتى الناس الـذين يدخلون اطرافا في صناعة قصة الحب لا يحسونها كالعشيقين .

ـ وهو كذلك .
ـ فاية سياسة تكون سياسة المنتج.. وهي غير.. الثوره كل . وهكذا وجدنا انفسنا عند السهر نخوض في موضوع اصلاح التعليم العالي وارتباطه بالتنمية وبكل التحولات الجارية . فمبداه ونهايته الحقائق الوطنية . وفاجانا الزميل الضاحك أبدا :
ـ كنت اظن الـ ( بي . سي . يو ) ـ المكتب الثقافي الجامعي ـ والـ ( سي . في . يو ) ـ لجان التطوع الجامعية ـ شيئا واحدا .
ـ أظنك الآن اكتشفت ابعاد نشاط هذا المكتب .
ـ بالتاكيد رجعي لا يخدم غير أعداء الشعب الطبقيين والامبريالية .
صمت قليلا ، ثم اضاف :
ـ يا للحينة ترتدي اللباس الوطني وتفسق فيه .
قبل أن يحرك سيد المنصة ملكته ليقضي على البرج . يدركه الفلاح سعيود رب الشطرنج كما يدعونه.
ـ نتراجع الملفات .
ـ لم تبق غير أسماء قدمناها لولاية « تيزي وزو » التي لم ترد فحولناها الى ولاية « البويرة » .
ـ الم تؤممهم لجنة البلدية ؟
ـ بلى لكننا لا نستطيع منعهم من استغلال أراضيهم الا بامر من الولاية. وبعد تحديدها من طرف (الكاداست) .
ـ الثورة الزراعية ليست موكولة بالمهدي .
وقال فلاح :
ـ عمل لجنة البلدية هو المبدأ .
فرد عليه من المنصة :
ـ ومن رافعها ، بنجاح علي مثلا لم تقدو كل من الولايتين على لمسه .
وأسرع نائب رئيس المجلس البلدي يفض الاجتماع :
ـ لقد انتهت المرحلة الثانية ببلديتنا .
وأنا لم أصل اليه بعد ، كان قد اشغل لسانه بما حوى : سيدي ليس هنا .. سيدي مشغول .. سيدي في الاجتماع .. وسيدي .. وقبل أن يختم الباب بالشمع الاحمر : حضرتك مفتش .. وزير .. وتمتد أمامي جتة مريض مات قدام البيروقراطي ينتظر اليد الحنون أن تشيله من بين أظافر الموت . ومن أسفل الوادي كانت رائحة برتقال التعاونية ( رقم ١٤ ) المتعفن تنبعث . لان أوامر سيدنا ضاعت بين المكاتب المعنية للجهاز . وقد تصل بعد الآن أو لن تصل أبدا . ويدخل الاعلان عن الحملة الجماهيرية منشورا سريا الى ثانوية ( سي الحواس ) يعتمر بسويداء القلوب الشابة .
عند مخرج المدينة . وفي طريقنا الى تعاونية ( بوعمود ) . وجدناه مرتديا بدلته الزرقاء الصينية التي أرسلها له ابنه مراد من فرنسا قبل أن تنقطع أخباره بثلاث سنوات . حيا الشباب الذين سبقونا على متن جرارين . أوقف عمر سيارة ( لاندروفر ) ..
ـ واش عمي حميدو تتطوع معنا ؟
واستدار الى من في الخلف يغمز .
ـ لكن بودربالة .. لا يريد .
نكس رأسه كانما أهين .
ـ ( النو تصب .. والريح .. )
ـ يكره المتطوعين أكثر من الشيطان .
ـ هو الشيطان خلقا .
ضغط السائق المحرك . قال ( حميدو ) :
ـ أين تقصدون ؟
ازدرد المحرك جواب السائق .
قال حميدو :
ـ آه ..
ـ بوعمود أن تاتي معنا ؟
أدرك ( اللاندروفر ) قبل ان تتحرك بقفزة .
ـ جميعنا اليها .
واستوى في الخلف منشدا معنا :
تسلحوا بالعدة اللازمة . وانتشروا في التعاونيه .
ـ الفلاحون كل واحد .
لهجت قلوب الفلاحين .
ـ ماذا سيكون مصير النصاف ( حميدو ) مع بودربالة ؟
فكر السائق : « اثنتي عشرة سنة قضيتها وراء المقود . ولا علاوة » .
ـ لا يجوز أن تحصر القائمة في الاداريين دون العمال .
حدث النقابي نفسه .
ابتسم مصطفى وهو يلاحظ حمية الشباب . لقد تغذى حبك يا ( لونجا ) من روح الدم المتدفق لابنائك الاطهار . هاتفهم الوطني ٧٥ ـ ٦٩ ـ ٥٦ محفور في القلب .
ـ حاربنا من أجل تحرير البلاد وابن البلاد .
قال حميدو . وكان الايقاع الجماعي يقول : « أعداؤنا نسحقهم بالصبر ، ونقهرهم بالفعل . وندفنهم في ظل موسيقى العمل » .
يغرز اسماعيل المداراة بقوة في الارض . اكد العزم من خزرته وقسمات وجهه الصارمة :
ـ عهد رفاقه .
بدلا من رسالتي الى الحبيبة أثبت بطاقة أختي الصغيرة نعيمة التي لم أبعثها بعد :
الى نعيمة مع أمنياتي في ان تصبحي بعد قراءتك للبطاقة في طول سارية الراية الوطنية التي رفعتها طبقتنا العاملة لاول مرة في مظاهرات سكيكدة عام ١٩١٠ .. والسلام .